مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوة إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يُمكِنْ أن يُقسِمَ بما هو أعظَمُ منهُ أقسمَ بنفسِهِ* قائلاً لأُباركنَّكَ بركةً وأُكثِّرنَّكَ تكثيرًا* وذاكَ إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسمونَ بما هو أعظمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يزيدَ وَرَثَةَ الموعِدِ بيانًا لعدَمِ تحوُّلِ عزمِهِ توسَّطَ بالقسَمِ* حتى نحصُلَ بأمرَيْنِ لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ، نحنُ الذينَ التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوعِ أمامنا* الذي هو لنا كمرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجابِ* حيثُ دخلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صارَ على رُتبةِ ملكيصادقَ رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمانِ دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجدَ لهُ قائلاً

السلم إلى الله

لقد خصصت الكنيسة المقدسة الأحد الرابع من الصوم الأربعيني الكبير تذكاراً لأبينا البار يوحنا كاتب «سلّم الفضائل» (أو السلّم إلى الله)، الذي نسك في برية سيناء في القرن السابع الميلادي (راجع سيرة القديس مفصلة في السنكسار، ٣٠ آذار). ولا شك أن استرجاع تذكار البار يوحنا ومثال حياته الملائكية وتعاليمه الملهمة، مردّه إلى مكانة كتاب «السلّم» في الوجدان الأرثوذكسي كمرقاة من ثلاثين درجة تُصعد المؤمن المجاهد من ترابية الأرض إلى سماوية الاتحاد بالله، غاية كل مسيحي ومراده الأخير. «صار الإله إنساناً لكي يصير كل إنسان بالنعمة إلهاً» يقول القديس أثناسيوس الكبير. أما صيغة السلّم، المبني عليها الكتاب، فمستوحاة من رؤيا يعقوب في سفر التكوين: «ورأى حُلماً وإذا سُلَّمٌ منصوبةٌ على الأرض ورأسُها يَمَسُّ السماءَ، وهوذا ملائكةُ اللهِ صاعدةٌ ونازلةٌ عليها» (تكوين ١٢:٢٨). أما ترتيب التعليم في ثلاثين درجة فيرمز إلى سني حياة الرب يسوع الثلاثين، قبل ظهوره للعالم وبدء رسالته العلنية. في «سلّم» يوحنا كل درجة تكمل ما قبلها وتؤسس لما بعدها، إشارة إلى منهجية بناء النفس البشرية مدماكاً مدماكاً، بمحاربة الأهواء واقتناء الفضائل، منهجية بدونها يمسي الجهاد الروحي أتعاباً مبعثرة لا تؤتي خير ثمارها.

العدد ٢٠٠٦/١٤
الأحد ٢ نيسان
الأحد الرابع من الصوم
أحد يوحنا السلّمي
تذكار أبينا البار تيطس العجائبي
اللحن الثامن
إنجيل السَحَر الثامن

بدايةً أنشأ القديس يوحنا السلّمي كتابه بناءً على طلب صديقه يوحنا رئيس دير رايثو السينائي، فأتت لغة الكتاب رهبانية الشكل والمفردات، والكتاب في ظاهره يخاطب الرهبان حصراً. إلا أن القديس يوحنا السلّمي لا يميز البتة بين الرهبان وسواهم من الناس، وهو في الدرجة الأولى من «سلّمه» إلى الله يؤكد على أن المسيحي، أي مسيحي، هو من يتشبه بالمسيح على قدر ما هو مستطاع للبشر. كما وأنه، وفي مواضع عدة، يشير إلى أن حالة اللاهوى المبتغاة، أي التحرر الكامل من الأهواء أو مسببات الخطيئة، إنما هي مبنية أساساً على التواضع الذي ما هو بالضرورة حال رهبانية. خلاصة لما

يا معلّمُ قد أتيتُك بابني بهِ روحٌ أبكم* وحيثُما آخذُهُ يصرعُهُ فيُزبِدُ ويصرفُ بأسنانهِ وييْبس. وقد سألتُ تلاميذَك أنْ يُخرجوهُ فلم يقدروا* فأجابهُ قائلاً أيُّها الجيلُ غيرُ المؤمنِ إلى متى أكون عندكم حتَّى متى أحتمِلُكم. هلمَّ بهِ إليَّ* فأتوهُ بهِ. فلمَّا رآهُ للوقت صرعَهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يتَمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابهُ هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيرًا ما ألقاهُ في النارِ في المياه ليُهلِكَهُ. لكنْ إن استطعتَ شيئًا فتحنَّنْ علينا وأغِثْنا* فقال لهُ يسوعُ إن استطعتَ أنْ تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمنِ* فصاحَ أبو الصبيّ من ساعَتهِ بدموعٍ وقال إنّي أؤمِنُ يا سيّد. فأغِثْ عدمَ إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرُكَ أن اخرُجْ منهُ ولا تعُدْ تدخلُ فيه* فصرخَ وخبَطَهُ كثيرًا وخرجَ منهُ فصار كالميتِ حتَّى قال كثيرون إنَّهُ قد مات* فأخذَ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخلَ بيتًا سألهُ تلاميذُه على انفرادٍ لماذا لم نستطِع نحن أنْ نُخرجَهُ* فقالَ لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أنْ يخْرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة

تقدم نقول إن السلّمي قد رسم، في درجات كتابه الثلاثين، محطات مراحل الجهاد الروحي الثلاث كما وعتها وتحياها الروحانية الشرقية: التطهُّر، الاستنارة والتألّه.

التطهُّر من الأهواء يشغل في كتاب السلّمي الحيز الأكبر، ست عشرة درجة من أصل ثلاثين، وهو بحسب القديس طريق التائب العملية إلى الله. وعلى مثال الراهب الذي يعتنق التوبة والطاعة منهجاً دائماً لحياته، يسلك المجاهد المؤمن أينما كان في الطاعة لله والتوبة إليه تعالى متسلحاً بهاتين الفضيلتين في وجه أهوائه التي هي أصل الخطايا ومسبباتها.

إن نقاوة القلب من الأهواء هي بحسب السلّمي المدخل الأوحد إلى معرفة الله، فقلب الإنسان لا يمتلئ من الله إلا بمقدار ما يفرغ من الأهواء، أي من الميول التي تبقي الإنسان أسير ترابيته. هذه يجمعها السلّمي تحت عناوين سرعة الغضب، الضجر من الجهاد، الشراهة والزنى والتعلق بالمقتنى المادي، فقدان اليقظة الروحية والكبرياء. من فرادات كتاب «السلّم إلى الله» واقعيته في مقاربة كل من مسببات الخطيئة فينا، من أصولها إلى تظاهراتها حتى طرائق احتوائها والتغلب عليها.

مرحلة الاستنارة في تعليم السلّمي هي حالة جديدة يبلغها المجاهد الدؤوب الصابر، المثابر في حربه على أهوائه، شيئاً فشيئاً ويزداد معها معرفة لذاته وخفاياها ، ويزداد بالتالي قدرة على الجهاد. إنها موهبة تمييز الأفكار الصالحة من تلك الخداعة، وحاسة تبيان مشيئة الله أكثر فأكثر وفي كل أحواله. حالة الاستنارة مبنية على فضائل الوداعة والتواضع والرحمة والشوق إلى البر التي تكون قد ترسّخت في نفس المجاهد المستنير وآلت به إلى اقتناء التطويبات الإنجيلية بحسب وعد الرب (متى ٥: ٢-١٢). يصف القديس يوحنا السلّمي حالة الاستنارة بأنها تشبّهٌ فِعليٌ بالمسيح وأم للمواهب السامية، بل ودليل على سكنى الله في قلب المجاهد الذي بلغها.

حالة الاتحاد بالله يحكيها قديسنا في درجات سلّمه الأربع الأخيرة، وفي الأيقونة التقليدية التي تصوّر ببلاغة كتاب «السلّم إلى الله» نرى الرب يسوع المسيح مطلاً من سمائه ممسكاً بيد الواصل إلى أعلى الدرجات. هذه الحالة يصفها قديسنا بأنها «وقوف دائم في حضرة الله»، وهي حالة لا مكان فيها للغضب أو الحقد أو الشهوات المتنوعة، «يجتاحها» الحب الإلهي ويجددها على الدوام. من بلغ هذه الحالة يمسي، ولأنه امتلأ من الحب الإلهي، عارفاً لا ذاته وحسب بل الآخرين أيضاً، يشع عليهم من النور الذي فيه. بيد أن القديس السلّمي يشدِّد هنا، للغاية، على أهميَّة صيانة حالة الاتحاد بالله باليقظة الدائمة عقلاً وقلباً، ورصد التجارب التي تبقى واردة ما دمنا على قيد الحياة. في الأيقونة عينها الآنفة الذكر نرى أيضاً أناساً يسقطون لا من الدرجات الواطئة وحسب، بل ومن أعلاها أيضاً.

إن محاولة الإحاطة بكتاب «السلّم إلى الله»، بهذا الكم اليسير من الكلمات، هو إجحاف بحق كتاب رأى فيه آباء كبار من كنيستنا استمراراً لإعلان الإنجيل. ذلك أن بين دفتي هذا الكتاب عصارة حياة أمست للفضيلة والتقوى وحب الله مثالاً. وإن كان اليوم الكتاب، بفضل الله،

والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أنْ يدري أحدٌ* فإنَّهُ كان يعلِّمُ تلاميذَه ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَهُ وبعد أنْ يُقتَلَ يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

«الذي هو لنا كمرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسِخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب، حيثُ دخلَ يسوعُ كسابِقٍ لنا» (عب ٦:١٩).

فيما نحن في العالم ولم نفارق الحياة على هذه الأرض بعد، يقول إننا نحصل منذ الآن على المواعيد لأننا عن طريق الرجاء نكون من الآن في السماء. قال: انتظروا، اصبروا لأن هذه الأمور سوف تتحقّق لا محالة. ثم يؤكّد كلامه قائلاً: إنكم بالأحرى تتمتّعون بالمواعيد والخيرات منذ الآن عن طريق الرجاء. لم يقل «دخل الحجاب» بل قال «تدخل إلى داخل الحجاب» الأمر الذي هو أكثر حقيقة وتصديقاً. فكما أن المرساة، عندما تُلقى من المركب، لا تدعه يذهب إلى هنا وهناك حتى ولو ضربته رياحٌ شديدة، بل تجعله ثابتاً، هكذا يكون مع الرجاء.

لذلك، لو لم نكن متوفراً لنا، فهو ليس للمطالعة السطحية بل رفيق حياة. لا يُقرأ بل يُعاش دليلاً للمؤمن في توقه إلى الله وفي سعيه لاكتشاف خفايا نفسه وتعقيداتها. كتاب «السلّم إلى الله» لا ينتمي إلى زمان قد عبر، على عراقته في التقليد، بل إلى الزمان الدائم إذ هو حافل بالروحانية المرهفة والتحليل النفسي الثاقب ويمتد إلى الأبدية لأن الحياة في الله مبتغاه.

قانون القديس إندراوس الكريتي

في الخميس من الأسبوع الخامس من الصوم الكبير، نقرأ في الكنيسة قانون التوبة الكبير الذي كتبه القديس إندراوس (٦٦١-٧٤٠) أسقف كريت في أوائل القرن الثامن. وقد كنا قرأنا هذا القانون مقسَّماً إلى أربعة أقسام في الأيام الأربعة الأولى من الصوم. يلخص هذا القانون روحانية الصو م الأربعيني المقدس الذي هو فترة يتوب فيها الإنسان عن هفواته ويعود إلى أحضان الآب السماوي.

يُقسَّم هذا القانون إلى تسعة أقسام تُسمَّى أودية. كل قسم مؤلَّف من عدد من الترانيم أو الطروباريات التي تفصل بينها اللازمة «ارحمني يا الله ارحمني» المترافقة مع رسم إشارة الصليب وانحناء الجسد الذي يجب أن يشترك في وعي التوبة. عدد هذه الطروباريات حوالي ٢٥٠ طروبارية، وقد أُضيف إليها في القرن التاسع طروباريات حول الرسل، وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر أُضيفت طروباريات عن القديسة مريم المصرية والقديس إندراوس، فصار المجموع ٣٠٠ طروبارية. ويبتدئ كل قسم بنشيد يسمى «أرمس» مأخوذ من الأناشيد التالية الواردة في الكتاب المقدس:

١- نشيد موسى (خروج ١٥:١-١٩)،
٢- تسبحة موسى الثانية (تثنية ٣٢: ١-٤٣)،
٣- صلاة حنّة أم صموئيل (١ ملوك ٢: ١-١٠)،
٤- صلاة النبي حبقوق (حبقوق ٣:٢-١٩)،
٥- صلاة النبي اشعياء (اشعياء ٢٦:٩-٢٠)،
٦- صلاة النبي يونان (يونان ٢:٣-١٠)،
٧و٨- صلاة الفتية الثلاثة في الأتون (دانيال ٣:٢٦-٥٦، ٣: ٥٧-٨٨)،
٩- صلاة العذراء مريم والدة الإله (لوقا ١: ٤٧-٥٥) وصلاة زكريا والد المعمدان (لوقا ١:٦٨-٧٩).

وتنتهي كل أودية بترنيمة تمجِّد الثالوث القدوس وترنيمة للسيدة العذراء.

بعد الأودية السادسة يتلى «القنداق» الذي يوضح هدف قراءة هذا القانون: «يا نفس، يا نفس، انهضي، لأية حال ترقدين؟ لقد قرُب الإنقضاء وأنتِ عتيدة أن تنزعجي. فانتبهي إذاً لكي يترأف عليك المسيح الإله الحاضر في كل مكان والمالئ الكل».

يقول أحد لاهوتيي القرن الماضي ان القانون الكبير ليس إلا قراءة روحية للكتاب المقدس مبنية على التوبة. فالقديس إندراوس يجعل من تاريخ الشعب في العهد القديم، في وجهه الحسن والسيء، في نماذج أشخاصه القديسين والأشرار، صورة ونموذجاً لكل مؤمن. فهو يحضر أمامنا صور أولئك الصدّيقين، إبرهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وداود والأنبياء، الذين حاربوا الشهوات وتابوا فدخلوا الملكوت. كما يحضر صور أولئك الذين خطئوا وما

حاصلين على الرجاء، لكنّا غرقنا من زمن طويل. ليس فقط في الروحيات بل أيضاً في الدنيويّات يمكن لكل واحد أن يرى في الرجاء قوّة كبيرة كما هي الحال في التجارة، في الفلاحة وفي الحرب. لو لم يكن الرجاء أمامه، لما استطاع أن يقوم بأي عمل.

لم يكتفِ بكلمة «مرساة» بل أضاف «أمينة وثابتة» لكي يُظهر ثباتَ أولئك الذين يستندون إليها من أجل خلاصهم. ولذلك يُضيف أيضاً «تدخل إلى داخل الحجاب». ماذا يعني ذلك؟ قال هذا قاصداً أنها تصل إلى السماء.

في ما يلي يتكلّم عن الإيمان مضافاً إلى الرجاء، حتى لا يبقى الرجاء وحده. بعد القسم يُظهر أموراً تحقّقت قائلاً إن يسوع دخل كسابق لأجلنا. السابق يسبق أناساً آخرين كما سبق يوحنا المسيح. المسافة بين السابق والتابعين ينبغي ألا تكون كبيرة، وإلاّ فلا يُدعى سابقاً. السابق والتابعون كلاهما على الطريق نفسها. الأول يسير، والآخرون يحاولون إدراكه.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تابوا، مِثل آدم وعيسو وغيرهما وسقطوا في الجحيم. يضع هذه النماذج أمامنا لكي يحثّنا على التوبة. وكما وجد العهد القديم كماله في العهد الجديد حيث تحقق الخلاص بيسوع المسيح، فإن كل أودية من القانون بعد الحديث عن نماذج العهد القديم تنتهي في طروباريات تتحدث عن الرحمة والغفران والفداء الذي حصل لنا بيسوع المسيح. كما ان الأودية التاسعة «إنجيلية كلياً» وتركز على معنى الصليب والقبر والقيامة. ملخَّص القانون ان الرب يسوع هو كمال الكتب والأنبياء. فكل خاطئ يتوب يعبر في المسيح يسوع من زمن العهد القديم إلى العهد الجديد «حيث المسيح يدخل في تاريخ كل نفس بقوة الصليب والقبر والقيامة شافياً ومعزياً ومحيياً».

تتسلسل مواضيع الأوديات التسعة على الشكل التالي:

الأودية الأولى تحدِّثنا عن السقوط الذي يقود إلى جريمة قايين، ويدعونا الكاتب إلى التوبة من خلال صورة آدم أول الجبلة الذي خالف وصية الرب وطُرح خارجاً. كما يدعونا أن لا نتشبَّه بحواء التي سقطت نتيجة الشهوة.

الأودية الثانية تذكِّرنا بالفردوس المفقود بسبب الخطيئة. كما تذكِّرنا بالثياب الجلدية التي خاطتها لنا الخطيئة إذ تعرينا مثل آدم من الحلة التي نسجها لنا الله.

الأودية الثالثة تذكِّرنا بحربنا غير المنظورة ضد الشهوات، فتحدثنا عن إبرهيم وسلالته، وإيمان إبرهيم، وعن خراب سدوم وعمورة، وعن هاجر وإسماعيل.

الأودية الرابعة تضع أمامنا صورة يعقوب وسلّمه المصعدة إلى السماء، وصورة عيسو الذي باع بكوريته أي جمال النفس الأول وسقط من البركة الأبوية.

الأودية الخامسة تحدثنا عن يوسف وإخوته الذين دفنوه في بئر فارغة. هكذا نحن نبيع السيد ابتغاءً لمآربنا. كما تحدثنا عن موسى الذي رفض الغنى والرفاهية ليدافع عن إخوته، وفضل سكنى البراري فحصل على معاينة ظهور الله في العليقة.

الأودية السادسة تتابع الحديث عن موسى وعبور البحر الأحمر.

الأودية السابعة تشبّه النفس البشرية بالملوك الذين خطئوا في العهد القديم، مثل داود الذي قتل نفساً بشرية، وسليمان الذي صار هائماً بالنساء، ورحبعام الذي جلب الإنقسام إلى يهوذا، ويربعام الذي قسَّم مملكة الشمال وآخاب الذي جلب الجفاف على الأرض بسبب مخالفته كلام الرب.

الأودية الثامنة تورد لنا نموذج الأنبياء والأشخاص الذين أرضوا الله في أعمالهم وإيمانهم وتابوا مثل إيليا وأليشع وأهل نينوى ودانيال الذي سدَّ أفواه الأسود في الجب، والكنعانية التي هتفت: «ارحمني يا رب يا ابن داود فإن ابنتي بها شيطان يعذبها» (متى ١٥:٢٢)، والمرأة التي سكبت قارورة الطيب على قدمي يسوع (لو ٧: ٣٧-٣٩).

الأودية التاسعة تضعنا أمام الخلاص الحاصل لنا بالرب يسوع. كل من ضارع سيرة الصدّيقين نال هذا الخلاص. فالمسيح تأنس لكي يخلّص كل ما قد هلك.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb